أندلسيات :

٤ ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي

تتمـــــة

تواليف الفتح وشيء من منظومه ومنثوره

الشائع المعروف أن ليس للفتح بن خاقان غير قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، ولكن يجب أن يلحظ أن المطمح نسختان صغيرة وكبيرة ؛ وقال ابن خلكان إن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى . وللفتح غير قلائد العقيان والمطمح كتاب اسمه بداية المحاسن وغاية المحاسن ، ذكر ذلك المقرى وقال إن له أيضاً مجموعا فى ترسيله وتأليفا صغيراً فى ترجمة ابن السيد البطليوسى نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد . . . ولمناسبة ذكر ابن السيد البطليوسى الأديب الكبير وصاحب شرح أدب الكاتب لابن قتيبة نقول : إنه كان بينه وبين الفتح علقة ومودة ، ومن ثم قرّظ ابن السيد كتاب القلائد بهذه الرقمة التى أرسلها إلى الفتح ، قال : « تأملت ـ فسح الله لسيدى وولي فى أمد بقائه ـ كتابه الذى شرع فى إنشائه ، فرأيت كتابا سينجد ويغور ، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور ، وتبين به القرى والمناسم ، وتغتدى له غرر فى أوجهٍ ومواسم ، فقد أسجد الله الكلام لكلامك ، وجعل النيرات طوع أقلامك ، فأنت تهدى بنجومها ، وتردى برجومها ، فالنثرة من نثرك ، والشعرى من شعرك ، والبلغاء لك معترفون ، وبين يديك متصرفون ، وليس ييارك مبار ، ولا يجاريك الى الغاية مجار ، إلا وقف حسيراً وسبقت ، ودعى أخيراً وتقدمت ، لاعدمت شفوفا ، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا . بعزة الله . . » . وقلائد العقيان كتاب قدمه الفتح لأبى اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ونائبه فى الأندلس ، وقد ألمنا فيما سلف الى بعض صفات هذا الكتاب وأنه هو والذخيرة لابن بسام ، واليتيمة للثعالبى ، والخريدة للعماد ، ونظائرها لاتعد كتب تراجم بالمعنى المتعارف ؛ وإنما هى حلىّ وصفات لبعض أفاضل العصر وبلغائه بأسلوب متسق بليغ . ومختارات من منظومهم ومنثورهم . أما تاريخ المترجم له ومنشؤه ونسبه ومولده ووفاته وكيف تصرفت به الأحوال فهذا ما ليسوا منه بسبيل ولا هو من همامهم وإنما هو من عمل المؤرخ . أما هم فأدباء يُحلون أدباء معاصرين أو قريبين من عصورهم ... وأسلوب الفتح فى كتبه أسلوب لا شك جزل متين وإن كان كله مُسجّعا ؛ ومن ثم قد يعلو وقد يسفل ، وقد يرى مطبوعا وقد يرى عليه أثر التكلف والتعمل . وقد كان بناء الكتاب فى تلك الأعصر يظنّون السجع عملا فنيّاً فى الذروة من الفن تلى مرتبته مرتبة الشعر للموسيقية التى فيه وإن كان النقدة من المتقدمين ينكرون الولوع به والافراط فيه كما ننكره نحن اليوم . وقد اشترطوا له شروطا أهمها : أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، ولم يشترطوا ذلك فى السجع فحسب ؛ وإنما اشترطوه فى كل المحسنات البديعية ، قالوا : إن هذه المحسنات ولاسيما اللفظية منها لاتحل محلها من القبول ، ولاتقع موقعها من الحسن ، حتى يكون المعنى هو الذى استدعاها وساقها نحوه ، وحتى تجدها لاتبتغى بها بدلا ولا تجد عنها حولا ؛ ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها ، لأن المعانى لاتدين فى كل موضع لها ، إذ هى فى الغالب ألفاظ ، والألفاظ خدم المعانى مُصرّفة فى حكمها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين . ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزمواسجية الطبع أمكن فى القبول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأسلم من التفاوت ، وأبعد من التصنع الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق . والرضا بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ؛ وأثقل صاحبها بالحلى والوشم ، قياس الحلى على السيف الدحان [1] والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال المتنبى :

إذا لم تشاهد غير حُسن شيائها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب

هكذا يقول إمام النقاد عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ـ سنة ١٠٧٨ ميلادية ـ ويقول : وقد تجد فى كلام

(١) الدحان بالفتح كالكحلم وزنا ومعنى أى الكليل

المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع ـ ومنه السجع ـ إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليُبين ؛ ويخيل اليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها ... ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فانها إذا تركت وما تريد لم تلبس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها . فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم الخ . «وبعد» فان الكلام فى هذا الموضوع يطول ، ولنجتزئ بهذا المقدار . والآن ، ألا يسمح لنا القارئ بأن نعرض عليه شيئاً من منظوم الفتح ومنثوره ؟ وأنت تعلم أن شعر الكتاب فى الأعم الأغلب إن هو إلا مقطعات من جهة ، وليس من النسق العالى كشعر فحول الشعراء من الجهة الأخرى . ومن ثم كان ما رأيناه من شعر الفتح على قلته شعراً وسطاً كما قال لسان الدين بن الخطيب . فمن شعره مما لم يرد فى كتبه :

لله ظبي من جنابك زارنى ... يختال زهوا فى ملاء ملاح
ولى المحاسك فى هواه كأنه ... مروان خاف كتائب السفاح
خلعت صبرى بالمرا ونبذته ... وركبت وجدى فى عنان جماح
أهدى لى الورد المضعف خده ... فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق ... وأريت جدا فى خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائرا ... تهفو به الأشواق دون جَناح

ومنه قوله وقد أورده فى قلائده يخاطب أبا يحيى بن الحاج :

أكعبة علياء وهضبة سودد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لملك زار افقك نوره ... وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وأين لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائى جوى تتفطر
فهل لك فى ود ذوى لك ظاهراً ... وباطنه يندى صفاء ويقطر

ومن منثوره مما لم يرد فى القلائد ولا فى المطمح قوله :

معاليك أشهر رسوما ، وأعطر نسيما ، من أن يَغرب شهاب مسعاها ، أو يجدب لرائد مرعاها ، فان نهتك فاغا نهبت عمرا ، وإن استنرتك فاغا أستنير قمراً ؛ والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم فى ملكه ، وأنتظم فى سلكه ، فانه حسام بيد الملك طلاقته فرنده ، وشهامته حده ، وقضيب فى دوحة الشرف رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ؛ وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادى المقدس . وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه . فجرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا يفل غربه ، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ... « وأما بعد » فان أردت التروى من منثور الفتح وبدائعه ، فعليك بالقلائد والمطمح ، فهما بحق نهران يزخران بالعجب والطرب ، رحمة الله على هذا الأديب الأندلسى البقرى المبدع ...

(تم البحث) عبد الرحمن البرقوقى